تفسير إبن كثير

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

وقوله تعالى جوابا لهم ومقابلة على صنيعهم : (االله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون)وقال ابن جرير : أخبر االله تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة ، في قوله : (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) الآية [الحديد : 13] ، وقوله تعالى : (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين) [آل عمران : 178] . قال : فهذا وما أشبهه ، من استهزاء االله تعالى ذكره ، وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين ، وأهل الشرك به عند قائل هذا القول ، ومتأول هذا التأويل .قال : وقال آخرون : بل استهزاؤه بهم توبيخه إياهم ، ولومه لهم على ما ركبوا من معاصيه ، والكفر به .قال : وقال آخرون : هذا وأمثاله على سبيل الجواب ، كقول الرجل لمن يخدعه إذا ظفر به : أنا الذي خدعتك . ولم تكن منه خديعة ، ولكن قال ذلك إذ صار الأمر إليه ، قالوا : وكذلك قوله :

(ومكروا ومكر االله واالله خير الماكرين) [آل عمران : 54] و (االله يستهزئ بهم) على الجواب ، واالله لا يكون منه المكر ولا الهزء ، والمعنى : أن المكر والهزء حاق بهم .وقال آخرون : قوله : (إنما نحن مستهزئون االله يستهزئ بهم) وقوله (يخادعون االله وهو خادعهم) [النساء : 142] ، وقوله (فيسخرون منهم سخر االله منهم) [التوبة : 79] و (نسوا االله فنسيهم) [التوبة : 67] وما أشبه ذلك ، إخبار من االله تعالى أنه يجازيهم جزاء الاستهزاء ، ويعاقبهم عقوبة الخداع فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ ، وإن اختلف المعنيان كما قال تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) [الشورى : 40] وقوله تعالى : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) [البقرة : 194] ، فالأول ظلم ، والثاني عدل ، فهما وإن اتفق لفظاهما فقد اختلف معناهما .قال : وإلى هذا المعنى وجهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك .قال : وقال آخرون : إن معنى ذلك : أن االله أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلوا إلى مردتهم قالوا : إنا معكم على دينكم ، في تكذيب محمد صلى االله عليه وسلم وما جاء به ، وإنما نحن بما يظهر لهم - من قولنا لهم : صدقنا بمحمد ، عليه السلام ، وما جاء به مستهزئون ؛

فأخبر االله تعالى أنه يستهزئ بهم ، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا ، يعني من عصمة دمائهم وأموالهم خلاف الذي لهم عنده في الآخرة ، يعني من العذاب والنكال .ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره ؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن االله عز وجل ، بالإجماع ، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك .قال : وبنحو ما قلنا فيه روي الخبر عن ابن عباس : حدثنا أبو كريب ، حدثنا عثمان ، حدثنا بشر ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، في قوله تعالى : (االله يستهزئ بهم) قال : يسخر بهم للنقمة منهم .وقوله تعالى : (ويمدهم في طغيانهم يعمهون) قال السدي : عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن أناس من الصحابة [قالوا] يمدهم : يملي لهم .وقال مجاهد : يزيدهم .قال ابن جرير : والصواب يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم ، كما قال : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) [الأنعام : 110] .والطغيان : هو المجاوزة في الشيء . كما قال : (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية) [الحاقة : 11] ، وقال الضحاك ، عن ابن عباس : (في

طغيانهم يعمهون) في كفرهم يترددون .وكذا فسره السدي بسنده عن الصحابة ، وبه يقول أبو العالية ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، ومجاهد ، وأبو مالك ، وعبد الرحمن بن زيد : في كفرهم وضلالتهم .قال ابن جرير : والعمه : الضلال ، يقال : عمه فلان يعمه عمها وعموها : إذا ضل .قال : وقوله : (في طغيانهم يعمهون) في ضلالهم وكفرهم الذي غمرهم دنسه ، وعلاهم رجسه ، يترددون [حيارى] ضلالا لا يجدون إلى المخرج منه سبيلا ؛ لأن االله تعالى قد طبع على قلوبهم وختم عليها ، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها ، فلا يبصرون رشدا ، ولا يهتدون سبيلا .[وقال بعضهم : العمى في العين ، والعمه في القلب ، وقد يستعمل العمى في القلب أيضا : قال االله تعالى : (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) [الحج : 46] ويقال : عمه الرجل يعمه عموها فهو عمه وعامه ، وجمعه عمه ، وذهبت إبله العمهاء : إذا لم يدر أين ذهبت .